

العنوان:	مدلول الشرف في اللغة والتاريخ
المصدر:	أعمال ندوة تكريم الأستاذ إدريس العمراني الحنشي : قضايا في تاريخ المغرب الفكري والاجتماعي
الناشر:	جامعة الحسن الثاني والجمعية المغربية للبحث التاريخي - كلية الآداب والعلوم الإنسانية عين الشق
المؤلف الرئيسي:	صدقي، محمد
محكمة:	نعم
التاريخ الميلادي:	2010
مكان انعقاد المؤتمر:	الدار البيضاء
رقم المؤتمر:	21
الهيئة المسؤولة:	جامعة الحسن الثاني، كلية الاداب والعلوم الانسانية
الصفحات:	111 - 122
رقم MD:	594617
نوع المحتوى:	بحوث المؤتمرات
قواعد المعلومات:	HumanIndex
مواضيع:	معنى الشرف، القيم الاجتماعية، المصطلحات، تاريخ العرب
رابط:	https://search.mandumah.com/Record/594617

© 2020 دار المنظومة. جميع الحقوق محفوظة.
هذه المادة متاحة بناء على الإتفاق الموقع مع أصحاب حقوق النشر، علما أن جميع حقوق النشر محفوظة. يمكنك تحميل أو طباعة هذه المادة للاستخدام الشخصي فقط، ويمنع النسخ أو التحويل أو النشر عبر أي وسيلة (مثل مواقع الانترنت أو البريد الالكتروني) دون تصريح خطي من أصحاب حقوق النشر أو دار المنظومة.

مدلول الشرف
في اللغة والتاريخ

محمد صدقي
ذ. التاريخ الوسيط بكلية الآداب عين الشق الدار البيضاء.

تنطلق المعاجم والقواميس اللغوية في تفسيرها لمعنى الشرف من أصل كلمة شرف، ويلي ذلك سلسلة من المشتقات يضيق المجال لذكرها هنا جميعا، وعليه يمكن إجمالها في المعاني التالية: المجد والحسب اللذان لا يكونان إلا بالآباء والأجداد. والكرم الذي لا وجوب فيه لآباء متقدمين في الشرف [1]، والعلو [2]، والقرب [3].

ولعل إطلاق هذه الأوصاف على قيم رمزية ومكتسبة أو متوارثة يعود إلى طبائع العرب، وبنية تفكيرهم في تحديد هوية الأمور والأشياء وتقييم الكليات التي يجمعها جامع معين، فالأنصار من نصروا دين الإسلام، والمهاجرون من هجروا الديار، والصحابة من صحبوا رسول الله "ص"، والتابعون من اتبعوا سنته، وكل هذه النعوت جارية على ألسنة العرب وطبائعهم.

ظل لفظ الشرف والأشراف من الألفاظ الشائعة عند العرب، ولربما كان الأكثر تداولا عند الإشارة إلى بعض قبائل شبه الجزيرة العربية، كبني تميم، وبني عدي، وبني أسد، وبني زهرة، وبني هذيل وغيرها [4]، هذه القبائل اعتبرت خلال

---

[1] - الشرف: المجد، رجل شريف أي ماجد، له آباء متقدمون في الشرف، ومنه قولهم هو شرف قومه وكرمهم أي شريفهم وكريمهم، وبه فسر حديث الشعبي أنه قال للأعشى لِمَ لمْ تستكثر عند الشعبي، قال: كان يحتقرني، كنت آتيه مع الغير فيرحب، فيقول لي اقعد أيها العبد ثم يقول:

لا ترفع العبد سننه * ما دام فينا بأرضنا شرف

[2] - والشرف، محركة: العلو، والمكان العالي، قيل إني خرفت فلا ينتفع برأيي، وكبرت فلا أستطيع أن أركب حماري من الأرض إلا من مكان عال، والشرفة ما وضع على أعالي القصور والمدن، والمشرف المكان الذي تشرف عليه وتعلوه، قيل مشارف الأرض: معاليها.

[3] - أشرف لك الشيء: أمكنك، وشارف الشيء: دنا منه، وقارب أن يظفر به، والتشرف للشيء التطلع والنظر إليه. أنظر: مرتضى الحسيني الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق الدكتورعبد الفتاح الحلو، جزء23، دار الإحياء، لبنان، 1406– 1986، ص.ص. 492–508؛ ابن منظور، لسان العرب،ج. 6، دار صادر، بيروت، بدون تاريخ، ص.ص. 169– 174.

[4] - بدأ البلاذري كتابه بذكر نوح عليه السلام وعدنان، ثم تدرج بعد ذلك إلى أخبار الرسول (ص) وسيرته، وخص بالذكر علي بن أبي طالب، فذكر وقائعه وحروبه، ثم تحدث عن أبي العباس السفاح وأبي جعفر والخلفاء من بني أمية ثم عاد مرة ثانية لاستكمال روايات أنساب أشراف قريش أمثال: بني نوفل وبني أمية وبني زهرة. ويبدو أنه توفي قبل أن ينهي قبائل قيس.

العصر "الجاهلي" صفوة قبائل الحجاز وسميت بأشراف العرب، فالشرف بهذا المعنى، يفيد من حيث منحاه الاجتماعي التفاضل بين عالي الهمة والوضيع، والماجد والدنيء، والأصيل والدخيل.

وإذا تأملنا في دلالته الاصطلاحية، نجده غير بعيد عن مفهومه اللغوي، إذ يعتبر مكملا له، لأن أصله وجذره كان لغويا. وعلى هذا الأساس أصبح هذا التمييز قائما على قاعدة الانتماء إلى القبيلة، وعلى الانحدار من الأجداد ذوي الشرف الصريح، وعلى طبيعة المشاركة في الزعامة غير المتنازع فيها، فهو في آخر المطاف، تعبير دال على التراتبية الاجتماعية التي عرفها المجتمع القبلي قبل الدعوة الإسلامية؛ والمبني على الثروة المستخلصة من التجارة، والنمط النسبي والموقع داخل مؤسسة دار الندوة[1].

حفل عصر النبوة والخلافة الراشدية بمفاهيم جديدة، ومعاني عميقة في الممارسة الإنسانية، وقد امتد هذا التحول الذي مس جوانب كثيرة من حياة الناس إلى مدلول الشرف، حيث أخذ مسارا فكريا مغايرا لما كان عليه في السابق، فأصبح "أخيار العرب في الجاهلية أخيارهم في الإسلام"[2] لكنه مشروط بالتفقه في الدين، وصار "الأكرم هو الأتقى ولو كان ابن زنجية"[3]، وأضحى العاصي والكافر "**محطوط الدرجة ولو كان ابن النبيئين**"[4]، وهكذا آخى العهد الجديد بين الأنصار والمهاجرين، وجعل التعاون والتعارف ركنين أساسيين في بناء المجتمع الوليد الذي ينشد العدالة

البلاذري، "أنساب أشراف العرب"، الجزء الأول، دار المعارف، بدون تاريخ، ص 25 -27 .

[1]- أحدث قصي بن كلاب بعد تغلبه على مدينة مكة نظاما سياسيا مكونا من أربع وظائف، كان الهدف منه، بالإضافة إلى خدمة الحاج، ضمان ولاء قبائل الحجاز لسلطته. ذكر ابن الأثير في هذا الصدد:"**وتيمنت قريش بأمره، فلا تنكح امرأة ولا رجل إلا في داره، وكان أمره في قومه كالدين المتبع ... فاتخذ دار الندوة، وفيها كانت قريش تقضي أمورها**". وتعود أهمية دار الندوة من اعتبار شرف القبيلة في توزيع وظلئفها "**فأما الحجابة فهي في ولده إلى الآن وهم بنو شيبة بن عثمان، وأما اللواء فلم يزل في ولده إلى أن جاء الإسلام، فقال بنو عبد الدار : يا رسول الله اجعل اللواء فينا، فقال: الإسلام أوسع من ذلك، فبطل، وأما الرفادة والسقاية فإن بني عبد مناف وهاشم والمطلب ونوفل اجتمعوا أن يأخذوها من بني عبد الدار لشرفهم عليهم وفضلهم، فتفرقت عن ذلك قريش، فكانت طائفة مع عبد مناف، وطائفة مع بني عبد الدار... واقترعوا عليها فصارت لهاشم بن عبد مناف ثم بعده للمطلب بن مناف ثم لأبي طالب ابن عبد المطلب**"، إلا أن ضائقة مالية حلت بهذا الأخير، فاضطر معها للتنازل عنها لأخيه العباس بن عبد المطلب. الكامل في التاريخ،ج.2 ، دار الفكر، بيروت، 1978، ص. ص. 8 ، 13، 14.

[2]- ابن حزم الأندلسي (أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد)، جمهرة أنساب العرب، تحقيق وتعليق، عبد السلام محمد هارون، دار المعارف، مصر، 1982 – 1962 ، ص. 1.

[3]- نفسه، ص. 2.

[4]- نفسه، نفس الصفحة.

والاندماج[1] **(واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا، واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم، فأصبحتم بنعمته إخوانا)**[2]. وإذا كان الإسلام **"يجب ما قبله"** فإنه في موضوع النسب لم يلغ كل مكوناته الاجتماعية، بل جعله فرض كفاية، لحاجة المسلمين إليه في تدبير أمورهم الدينية **"تعلموا من أنسابكم ما تصلون به أرحامكم، فإن صلة الرحم في الأهل مسراة في المال ... ومرضاة للرب"**[3].

فعن طريق النسب، أصبح المسلم يعرف أن محمدا الذي بعثه الله بدين الحق هو محمد بن عبد الله القرشي الهاشمي الذي كان بمكة ورحل عنها إلى المدينة، وأن آية الإيمان حب الأنصار، وأن آية النفاق بغض الأنصار[4]، وأن الرسول أوصى بهم خيرا، وقد نقل عن علي بن أبي طالب قوله: **"إذا لم نعرف أنساب الأنصار، فإننا لا نستطيع معرفة لمن نحسن ولا عمن نتجاوز"**[5].

وهكذا وضعت الشريعة للنسب مقاصد وأغراضا، كان الهدف منها تبيين: من يجب في حقه الخمس من ذوي القربى، ومن لا حق له فيه، ومن تحرم عليه الصدقة من آل البيت، ومن يحرم على المسلم في النكاح، وما يتصل به من رحم يوجب ميراثا، أو يلزمه صلة أو نفقة[6].

لم يدم هذا التوجه الذي أرسى قواعده رسول الله (ص) طويلا، فبعد وصول الأمويين إلى سدة الحكم، ظهرت في الآفاق صراعات مذهبية وسياسية أدت إلى بروز طوائف وفرق متناحرة، دفعت الدولة إلى البحث عن الأسباب الصائغة لإخمادها، أو على الأقل الحد من خطورتها، فشجعت شعراء القبائل وإخبارييها للتفاخر بأمجادهم وأحسابهم، ولكن دون تمزيق الوحدة السياسية، ودون أن يمنع عنصر العناصر

1- ولعل أول أركان هذا البناء هو التضامن، فإن أول عمل قام به النبي عندما قدم المدينة مهاجرا هو: المآخاة بين المهاجرين والأنصار، فقد طلب من الأنصار إيواء المهاجرين من قريش الذين تركوا ديارهم وأموالهم، وجعل كل عائلة من الأنصار تقوم بشؤون عائلة من المهاجرين ليذهب عنهم وحشة الغربة، ويؤنسهم من مفارقة الأهل والعشيرة، ويشد أزر بعضهم البعض. ذكر ابن إسحاق أن الرسول قال:**"تآخوا في الله أخوين أخوين، ثم أخذ علي بن أبي طالب، فقال: هذا أخي..."**. أنظر: النص كاملا في السيرة النبوية لابن هشام، تحقيق، مصطفى السقا، إبراهيم الأبياري، عبد الحفيظ شلبي، ج.2، دار القلم، بيروت، بدون تاريخ، ص.ص. 150 – 152.

2- سورة آل عمران، الآية. 3.

3- ابن حزم، مصدر سابق، ص. 1.

4- ابن حزم، مصدر سابق، ص. 3.

5- نفسه، نفس الصفحة.

6- أنظر: محمد صدقي، الأدارسة من القيام إلى التجزئة، بحث لنيل دبلوم الدراسات الجامعية العليا في التاريخ، كلية الآداب، فاس، 1989، ص.81.

الأخرى من الحق ذاته[1]، وبذلك تمت إعادة المذهب "الجاهلي" الذي "جبه الإسلام"، فظهرت الأيام من جديد على يد عدد من الإخباريين أمثال أبي مخنف، ووهب ابن منبه، وابن الكلبي وغيرهم[2].

والأيام تعني الحروب التي كان العرب يخوضونها نهارا. يذكر المؤرخون أنها كانت تتخذ أسماء البقاع التي تجرى فيها هذه المعارك **كيوم ذي قار** بين الفرس وبني بكر[3]. وقد ارتبطت فكرة الأيام بصورة البطولة والنمط النسبي، أكثر من ارتباطها بالفكر التاريخي، لأنها رغم احتوائها على مادة تاريخية أولية، فهي تبقى ضمن الروايات التي يجب التعامل معها بحذر شديد، لأن الظروف الجديدة التي ظهرت فيها هذه الأخبار، كانت في غالب الأحيان لخدمة أغراض سياسية وثقافية معينة، خصوصا إذا أخذنا بعين الاعتبار، أن هذا النمط النسبي نما في اليمن على يد وهب بن منبه، الذي اعتنى بتاريخ اليمن وأهل الكتاب، في حين وجه عوانة بن الحكم وأبو مخنف في العراق عناية كبيرة لنسب الخلفاء انطلاقا من نزعة مذهبية خالصة[4].

وقد بالغ العرب في معرفة أنسابهم فرتبوها في طبقات أولها القبلية، فالعمارة، فالبطن، فالفخذ، فالفصيلة، وقد حافظت هذه العلائق العائلية والقبيلة على أنماطها النسبية القديمة خلال القرنين الأولين للهجرة، ومما سهل امتدادها إلى هذا التاريخ، هو أن الأسر البارزة التي كانت قبل الإسلام تفتخر بأنسابها وبأهميتها القبلية هي التي احتكرت الزعامة السياسية، فالاهتمام السياسي بالقرشيين، والاهتمام الطائفي بآل البيت، واعتزاز الأمويين بأحسابهم وأنسابهم كل ذلك تبلور بشكل واضح في الكتابة التاريخية[5].

---

[1] - عبد الله العروي، العرب والفكر التاريخي، دار الحقيقة، بيروت، 1973، ص. 78.

[2] - محمد عفت الشرقاوي، أدب التاريخ عند العرب، بيروت، بدون تاريخ، ص.144.

[3] - محمد عفت الشرقاوي، نفس المرجع، ص. 141.

[4] - نفسه، ص. 145، علي أمليل، الخطاب التاريخي، معهد الإنماء العربي، منشورات كلية الآداب، بدون تاريخ، ص.15 وما بعدها. أنظر كذلك: مارغوليوس، دراسات عن المؤرخين العرب، ترجمة حسين نصار، بيروت، دون تاريخ، ص.ص. 59 – 60.

[5] - روزنتال، علم التاريخ عند المسلمين، ترجمة أحمد صالح العلي، بغداد، 1963، ص. 135 وما بعدها؛ العروي، العرب والفكر التاريخي، ص. 79 ؛ ربط مارغوليوس ظهور مفهوم الطبقة عند المسلمين بتقدير العطاء الذي قام هو الآخر على أساس الأسبقية في الإسلام، فقد حاول أصحاب الطبقات والتراجم أن يحددوا طول مدة كل طبقة مثلما فعلوا في تحديد القرن، ص.59، ومهما يكن من أمر فإن تقسيم الطبقات جاء نتيجة طبيعية لفكرة أصحاب الرسول (ص)، والتي تطورت فيما بعد بالارتباط مع تطور الحديث النبوي، فقد استعمل هذا التصنيف في أول الأمر لتراجم الشخصيات المهمة في نقل الأحاديث وكان مقصورا في هذه الآونة على رواة الحديث، ثم أصبح

فمنذ أن امتد الإسلام وراء شبه الجزيرة العربية، وجدت الأنماط النسبية في هذه المناطق ملجأ أميناً لها، ذلك أن التاريخ السياسي في هذه الأمصار، اتخذ مجراه على أساس المنافسات العنصرية بين البربر والعرب في الغرب الإسلامي، وبين الفرس والعرب في الشرق الإسلامي[1].

إن الافتراض القائل: إن المعلومات المتعلقة بالأنساب والاهتمام بعمود النسب تعبير عن الحس التاريخي قول يطغى عليه نوع من الغلو والمبالغة، ذلك أن العرب عرفوا موضوع النسب قبل الإسلام، وعادة ما كان يطفو على السطح عندما تصبح شجرة النسب مثار شك، ويشعر الناس أن استحضارها شفويا أو تدوينها كتابة يساعد على إزالة هذا الريب ويمنع التزوير[2].

وقد بالغ النسابة العرب في معرفة أجدادهم، خصوصا عندما يتعلق الأمر بإرجاع نسبهم إلى تاريخ سحيق، قد تختلط فيه الأسطورة بالحقيقة التاريخية، ومن أجل هذه النزعة الخرافية، كانت الأنساب وما تزال مجال شك لدى كثير من المؤرخين[3].

فيما بعد لتصنيف أنواع الرجال، وخاصة العلماء والشرفاء والقضاة والخلفاء، والعمال.

[1]- إن السياسة التي نهجها بعض ولاة بني أمية في بلاد المغرب، والتي قامت على أساس فرض الأمر الواقع عن طريق الاجتياحات السريعة، لم تكن كفيلة للحفاظ على ما حققته الدولة الأموية من مكتسبات، فبعد تعيين عبد الله بن الحبحاب واليا على المغرب "**انشغل بجمع الثروات ... وتعدى الصدقات، وأراد تخميس البربر، وزعم أنهم فيء المسلمين، فكان عمله هذا ... سببا لنقض البلاد ووقوع الفتن العظيمة المؤدية إلى كثير من القتل في العبـاد**" ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ج.1، تحقيق: كولان وليفي بروفنصال، دار الثقافة، بيروت، الطبعة الثانية، 1980، ص. 53. وقد حمل الرقيق القيرواني مسؤولية هذه الوضعية إلى الأمويين بقوله:"**كان الخلفاء في المشرق يستحبون طرائف المغرب ويبعثون إلى عامل إفريقية كي يصدر إليهم البربريات الحسان، فلما أفضى الأمر إلى ابن الحبحاب مناهم بالكثير وتكلف لهم أو كلفوه أكثر فاضطر إلى التعسف، فثار البربر بأجمعهم وسميت المعركة التي خاضها حميد الزناتي ضد جيش كلثوم بن عياض بمعركة الأشراف، لأنه قتل فيها أشراف العرب**". الرقيق القيرواني، تاريخ إفريقية والمغرب، تحقيق: الكعبي، مطبعة الوسط، تونس، بدون تاريخ، ص.109؛ عبد الله العروي، مجمل تاريخ المغرب، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، 1984 ، ص.136؛ محمد إسماعيل، الخوارج في بلاد المغرب، دار العودة، بيروت، 1976، ص.219 وما بعدها؛ سعد زغلول، تاريخ المغرب العربي، ج.1، مطبعة المعارف، الإسكندرية، بدون تاريخ، ص. 286 وما بعدها.

[2]- عبد العزيز سالم، التاريخ والمؤرخون العرب، 1967 ، ص. 178.

[3]- عفت الشرقاوي، مرجع سابق، ص. 152، أثار آدم متز إشكالا لا يخلو من أهمية، ويتمثل في اعتقاد العرب وقولهم: إن الشرف نسب كأسمى رابطة بين مكونات القبيلة، ففي مقابل اعتزازهم برابطة الدم الأبيسي نجدهم يهملون رابطة الدم الأموسي، لدرجة أن معظم خلفاء القرنين الثالث

إلى جانب هذه المفاهيم السالفة الذكر، تعددت مضامين الشرف خلال صدر الإسلام، وكلها تنطلق من بواعث اجتماعية وسياسية ودينية، فقد أوجد هذا العصر بيوتات شريفة جديدة، من أبرزها قرابة الرسول (ص)، وبيوتات الأنصار، والصحابة كالبكريين والصديقيين والزبيريين وغيرهم، وقد عرفت قرابة الرسول بأهل محمد، كما استعمل المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها آل محمد، وآل البيت، واستمر هذا الاستعمال حتى صار علما يميزهم عن غيرهم.

وأهل البيت هنا، هم: عيال الرسول، وذريته، وقرابته، وبهذه الصفة كانت ذرية العباس بن عبد المطلب من آل البيت، غير أن عقب علي بن أبي طالب، كما سنرى، استأثرت بمكانة أكبر، وهي الذرية التي تناسلت من الحسن والحسين وفاطمة بنت رسول الله (ص)، وقد لازمت هذه الصفة الأسرة النبوية مدة طويلة قبل شيوع لفظ الشرف[1].

تكمن أهمية هذا اللقب بصرف النظر عن الحقبة التي طغى فيها استعماله، أنه ورد في القرآن الكريم حسب علمنا ثلاث مرات على الأقل، فقد ورد ذكر آل البيت في قوله تعالى: (**رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت**)[2]، وفي قوله تعالى: (**إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا**)[3]، وقد أوصى النبي (ص) أمة الإسلام خيرا ببيته وبذلك نزل قوله تعالى: (**قل لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة في القربى...**)[4].

تعرضت الحركة العلوية ومنذ نشأتها الأولى عقب وفاة الرسول (ص) مباشرة، أو بالضبط بعد تحولها من فئة تطالب بحق علي بن أبي طالب في الخلافة، إلى حزب سياسي بعد مقتله، إلى شتى أصناف الاضطهاد السياسي، فقد حفل العصر الأموي بثورات علوية ناصبت الأمويين العداء الصريح، وكان مصير هذه الثورات

والرابع الهجريين كانت أمهاتهم جوار من الترك والروم والبربر. أنظر: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، أو عصر النهضة في الإسلام، ترجمة: محمد عبد الهادي أبو زيد، المجلد الأول، مكتبة الخانجي، دار الكتاب العربي، بيروت، 1387، 1967، ص. 279.

1- أنظر في هذا الصدد: إبراهيم حركات، نبذة عن الأشراف في عصر الخلافة، مجلة الدوحة، العدد الأول، نونبر، 1996 – رجب 1417، ص.ص. 100 – 110 ؛ محمد بن عبد الله، الصدقة والهدية بالنسبة للأشراف، مجلة الدوحة، العدد الثاني، السنة الثانية، 1997 – 1418، ص.ص.100 إلى 105؛ إدريس تغراوتي سعيدة، مكانة رابطة الشرفاء في وجدان الأمة العربية الإسلامية، مجلة الدوحة، العدد الأول، 1996– 1417 ، ص.ص. 134 – 141.

2- سورة هود، الآية: 73.

3- سورة الأحزاب، الآية: 33.

4- سورة الشورى، الآية: 22.

الفشل لعوامل متداخلة يضيق المجال لعرضها هنا[1]. وقد حرص أهل البيت خلال هذا الصراع على إظهار فضائل علي بن أبي طالب واستقامته. وإذا كان أهل السنة لا يختلفون مع آل البيت وشيعتهم في ذكر خصال هذا الإمام الجليل، فإن الشيعة تضفي عليه من الخصائص، وتنسب إليه من الكرامات ما تحاول بها أن تجعله يتبوأ الصدارة الأولى بعد النبي، ولا تلقي بالا إلى باقي الخلفاء والصحابة الذين كانت لهم أدوارهم في نصرة الإسلام[2].

وإذا كانت هوية الشيء تحدد انطلاقا من وظيفته، فإن مدلول الشرف سيعرف تحولا عميقا كممارسة سياسية، خصوصا بعد وصول طرف من آل البيت إلى هرم السلطة. فلما تولى أبو جعفر المنصور الخلافة، بعد أخيه أبي العباس، انتهى إلى مسامعه أن محمدا بن عبد الله النفس الزكية: شقيق إدريس الأول يطمح في الخلافة، وأنه أرسل دعاته إلى الآفاق يدعون إلى إمامته، وأنهم، أي الدعاة، يرددون أن أبا جعفر كان قد عقد له البيعة أمام عدد من الهاشميين عندما اجتمعوا بالأبواب بعد مقتل الوليد بن عبد الملك، فحاول المنصور إلقاء القبض عليه، لكن دون جدوى، فاضطر إلى اعتقال والده مع عدد من العلويين، ووضعهم في سجن خاص، الشيء الذي دفع محمد بن عبد الله إلى إعلان الثورة على المنصور في 28 جمادى الثانية 145هـ – 762م[3].

ولما بلغت المنصور ثورة محمد النفس الزكية كتب له رسالة عهد وأمان "**لك علي عهد الله وميثاقه إن تبت ورجعت قبل أن أقدر عليك أن أؤمنك ... وأعطيك ألف درهم، وما سألت من الحوائج، وأن أنزلك من البلاد ما شئت ... فإن أردت أن تتوثق فوجه إلى من أحببت**". لكن المثير في رد محمد بن عبدالله، هو: استحضاره للموروث القديم ومستجداته السياسية، كقيمة مضافة لما أصبح عليه الأمر في النصف الثاني من القرن الثاني الهجري، فهو يرى في وصول العباسيين إلى سدة الحكم "**إنما ادعيتم هذا الأمر بنا، وحظيتم بفضلنا، وأن أبانا علي كان الوصي وكان الإمام، فكيف ورثتم ولايته وولده أحياء ... ثم أنه لم يطلب هذا الأمر أحد له مثل نسبتنا وحالنا**

---

[1]- انظر: ثورات العلويين في العصر الأموي، محمد صدقي، الأدارسة من القيام إلى التجزئة، ص. 87.

[2]- محمد صدقي، نفس المرجع، ص. 88.

[3]- أبو الفرج الأصفهاني، مقاتل الطالبيين، تحقيق: أحمد السيد صفر، القاهرة، بدون تاريخ، ص.ص.223– 448؛ أبو الحسن علي بن إسماعيل الأشعري، مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين، تحقيق: محمد محيي الدين،ج.1،مكتبة النهضة المصرية،الطبعة 1950،1، ص.145؛ اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، الجزء 2، دار صادر، بيروت، بدون تاريخ، ص.ص.369– 370.

وشرفنا ... ولا أحد من بني هاشم يمت بصلة القرابة والسابقة والفضل مثلنا ... إن الله اختارنا، واختار لنا، فوالدنا من النبي (ص)، ومن الأزواج أفضلهن خديجة الطاهرة، ومن البنات خيرهن فاطمة سيدة نساء أهل الجنة، ومن المولدين في الإسلام حسن وحسين سيدا شباب أهل الجنة، ... وإني أوسط بني هاشم نسبا، وأصرحهم أبا ... فما زال الله يختار لنا الآباء والأمهات في الجاهلية والإسلام"[1].

إن الشهادات الآنفة الذكر تنهض دليلا أن جوهر الصراع الذي شهده العصر ارتبط في جانب من جوانبه المختلفة بالشروط التي يجب توفرها في اختيار أمير المؤمنين، وقد وظف المنصور، وبذكاء شديد، في جوابه على مزاعم النفس الزكية، الواقع الجديد الذي أصبح العالم الإسلامي يعيشه تحت مظلة العباسيين، والقائم على ثنائية الترغيب والترهيب **"إن تبت ورجعت"** إلى جادة الصواب **"قبل أن أقدر عليك"**. بالإضافة إلى التراكم الحاصل على المستوى الفقهي، ومن تم، تساءل المنصور هل يحق لنا اليوم الافتخار بقرابة النساء **"فالله لم يجعل النساء كالعمومة والآباء، ولا كالعصمة والأولياء، لأن الله جعل العم أبا، ولو كان اختيار الله لهن على قدر قرابتهن لكانت آمنة أقربهن رحما ... وان الله سبحانه في كتابه قال:(ما كان محمد أبا أحد) وإذا كنتم بنو ابنته، وأنها لقرابة قريبة، فإنها لا تجوز الميراث، ولا ترث الولاية، ولا يجوز لها الإمامة، فكيف ترثون بها**[2].

إن المتتبع لهذه الأفكار يجدها تتدرج عبر مراحل تطورية، لتصل مع محمد النفس الزكية إلى صيغها النهائية. لقد قامت أفكار العلويين على أساس عاطفي وجداني، أساسها قرابتهم من النبي (ص)، وتضحياتهم المحزنة التي لم تنته. يخبرنا أبو الفرج الأصفهاني أنه بعد مقتل الوليد بن يزيد، واختلاف كلمة بني مروان، كان أول ما يظهره دعاة بني هاشم هو فضل علي بن أبي طالب وأبنائه، وما لحق بهم من القتل والتشرد **"فإذا استتب لهم الأمر دعا كل فريق منهم الوصية لمن يدعو إليه"**[3].

وهكذا أصبح الانتماء إلى آل البيت شرطا ضروريا لإضفاء الشرعية على متولي منصب الخلافة، فقد استند المنصور من خلال النص السابق في إثبات شرعية العباسيين على قرابة العباس من النبي (ص) وعلى مكانته المتميزة قبل الإسلام.

---

[1]- نص الرسائل المتبادلة بين محمد النفس الزكية وأبي جعفر المنصور، كما ورد عند الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج.7، تقديم أبي الفضل إبراهيم، دار سويدان، بيروت، ص.ص. 566 – 567 – 568 – 569 – 571 ؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج.5، ص.ص.537 – 540 ؛ ابن خلدون، العبر، ج.4 ، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1979، ص.ص. 4 – 6، اعتمدنا رواية الطبري باعتبارها الأقدم كما قمنا بحذف بعض الفقرات التي لا علاقة لها بالموضوع.

[2]- الطبري، نفس الصفحات.

[3]- أبو الفرج الأصفهاني، ص. 223.

"فالسقاية سقايته، وميراث النبي ميراثه...فلم يبق شرف ولا فضل في الجاهلية، ولا في الإسلام، إلا والعباس وارثه وموروثه"[1]. حدث هذا، أو بدأ يحدث عندما استبد هؤلاء بالخلافة، ورفضوا دعاوي العلويين القائلة بأنهم حرموهم من المنصب الموصى لهم **"علي الوصي"**.

ترك هذا الطلاق السياسي الحاصل بصمات جلية على مدلول لفظ آل البيت، فلقب آل علي، وآل العباس، وآل جعفر، وآل عقيل، هو نتيجة ومظهر لذلك الصراع الذي خاضه الطرفان، وهو في الوقت ذاته، تعبير عن التجزئة والانقسام اللذين نخرا جسم بني هاشم بفعل السياسة وأهوائها.

ربط كثير من المؤرخين ظهور لقب الشريف بانحلال الدولة العباسية وظهور الفاطميين على مسرح الأحداث، فقد ثار العلويون في كل مكان، وانتزعوا السلطة من العباسيين في الحرمين الشريفين، وفي الديلم والمغرب الأوسط، والمغرب الأقصى[2]، وأمام عجز العباسيين الواضح في إيقاف هذا الاكتساح الذي دشنه محمد النفس الزكية، لجأوا إلى الطعن في أعدائهم، فقد عمل خلفاء الدولة على القدح في نسب الفاطميين، وصدر بذلك أكثر من محضر، حرره وأمضاه عدد من الأشراف والعلماء، ومن أشهر هذه المحاضر: محضر (402هـ/1011م) ومحضر (444هـ/ 1052م) [3].

1- الطبري ، نفس الصفحات.

2- لم تقتصر ثورات العلويين على منطقة محددة، فبعد ثورة محمد بن عبد الله، ظهرت ثورة إبراهيم بن عبدالله بمدينة البصرة سنة 145هـ- 762م، إلا أن تأخرها عن ثورة أخيه لمرض أصابه جعلها عديمة الفائدة.أنظر في هذا الصدد: الطبري، مصدر سابق، ج.7، ص.552، ثم قام يحيى بن عبد الله بالديلم، واستقل بها مدة إلى أن قتل عن طريق السم، أنظر: مقاتل الطالبين،ص.ص. 296 – 448. وقد اختلفت المصادر التاريخية حول إقامة سليمان بن عبد الله إمارة في تلسمان. فإذا كان صاحب مقاتل الطالبين يعتبر سليمان بن عبد الله من شهداء معركة فخ، فإن المصادر المرينية ترى أنه فر إلى مدينة تلمسان وكون بها إمارة. ابن أبي زرع الفاسي، روض القرطاس، دار المنصور للطباعة، 1973، ص.ص.15، 16،وقد تزعم الحسن بن علي ثورة علوية ضد العباسيين سنة 169هـ- 785م،قتل في معركة فخ بمدينة مكة،وعلى إثرها فر إدريس بن عبد الله إلى بلاد المغرب الأقصى ليقيم إمارة الأدارسة.

3- مما جاء في المحضر الأول 402هـ **"هذا ما شهد به الشهود، أن معد بن إسماعيل بن عبد الرحمان بن سعيد منتسب إلى ديصانا بن سعيد، الذي ينسب إلى الدياصنة، وأن هذا الناجم بمصر هو منصور بن نزار الملقب بالحاكم حكم الله عليه بالوبار والدمار ... وأن من تقدم من سلفه الأرجاس الأنجاس عليهم لعنة الله ولعنة اللاعنين، أدعياء خوارج، لا نسب لهم في ولد علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وأن ما دعوه من الانتساب زور وباطل، وأن هذا الناجم في مصر هو وسلفه، كفار، فساق، زنادقة، ملحدون، معطلون، وللإسلام جاحدون، أباحوا الفروج، وأحلوا الخمور، وسبوا الأنبياء، وادعوا الربوبية، ونحو ذلك... وكتب في ربيع الأول سنة اثنين وأربعمائة"**.ابن الوردي زين الدين عمر، تاريخ ابن الوردي،ج.1، الطبعة الوهابية،

دفعت هذه المحاضر وعلى اختلاف مشاربها الفاطميين إلى سن سياسة تمييزية إزاء آل البيت، فقد ابتكروا عرفا جديدا ارتبط في مجمله بالتسمية التي أصبح آل البيت يعرفون بها حتى الآن، وهكذا حجم الفاطميون دائرة استعمال لقب الشريف، وقصروه على عقب الحسن والحسين، ورفضوا تدوينه في محاضر الوصايا، والأوقاف، وعقود الزواج على غير المنتسبين لهذين الرجلين، وعززوا ذلك بأساليب وطقوس، كان الهدف منها ترسيخ هذا الاعتقاد داخل المجتمع المصري، والمناطق التي احتلوها، كالاحتفال بعيد المولد النبوي الشريف، وتخليد يوم عاشوراء، وتقديس مشاهد الأسلاف[1]، وبذلك يكون لفظ الشريف عادة مصرية في إطلاق الألقاب.

لعب فقهاء الشيعة دورا طلائعيا، ليس في نشر المذهب الشيعي الإسماعيلي فقط، بل في تبرير الحق الشرعي في الخلافة لأسرة الإمام علي. فقد ورد عند الإمام الباقر التفسير التالي للآية (**ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء توتي أكلها كل حين بإذن ربها**)[2]، فالشجرة من منظور هذا الإمام: رسول الله، ونسبه ثابت في بني هاشم، وفرع الشجرة: علي بن أبي طالب، وغصن الشجرة: فاطمة عليها السلام، وثمرها: الأئمة من علي بن أبي طالب وفاطمة، وقد أضاف البعض أن الشرفاء من آل علي هم النجوم التي تتضمنها الآية (**وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر**)[3]، وأخرج البزار والطبراني عن الحسن بن علي من طرق عديدة أنه خطب خطبة من جملتها:"**من عرفني فقد عرفني، ومن لم يعرفني فأنا الحسن بن محمد(ص) ثم تلا قوله تعالى: (واتبعت ملة آبائي إبراهيم)**[4].

القاهرة، 1285ن ويعرف تاريخ ابن الوردي أيضا بتتمة المختصر في أخبار البشر لأبي الفدا، ص. 325.

[1] - تحدث ابن الأثير عن اختفاء مغنية كانت تجالس المتوكل العباسي، وبعد عودتها سألها عن سبب غيابها المفاجئ، قالت كنت في الحج، ولم يكن الوقت وقت حج، فاستطردها قائلا أي حج تعنين؟ قالت كنت في حج مشهد علي، فأمر المتوكل "**بهدم قبر الحسين بن علي وهدم ما حوله من المنازل والدور وأن يبكر ويسقي قبره وأن يمنع الناس من إتيانه، فنادى بالناس في تلك الناحية من وجدناه عند قبره بعد ثلاثة حبسناه في المطبق فهرب الناس وتركوا زيارته وخرب وزرع**"، ابن الأثير،ج.5، مصدر سابق، ص.287؛

[2] - سورة إبراهيم، الآية: 25 ، 26.

[3] - سورة الأنعام، الآية: 97.

[4] - سورة يوسف، الآية: 38، أنظر في هذا الشأن: محمد حسين الحاج العاملي، حقوق آل البيت في الكتاب والسنة باتفاق الأمة، تقديم: الشيخ جعفر السليماني، دار الأضواء، بيروت، لبنان، 1421هـ / 2000م، ص. 49 ؛ كامل مصطفى الشيبي، الصلة بين التصوف والتشيع، ج.1 ، دار الأندلس، بيروت، الطبعة الثالثة، 1982، الفصل الأول، مقدمات في التشيع، من ص. 19 إلى ص. 90.

وإذا كان المغاربة قد حصروا مفهوم الشرف وحسموه في ذرية الحسن والحسين، باعتبار أن آل البيت الذين استقروا في هذه الديار ينحدرون منهما، فإن الجدل الفقهي الذي عرفه القرنان الثامن والتاسع الهجريان انصب على شرعية هذه الألفاظ الرائجة في الوسط المغربي، ومدى مطابقتهما للشريعة الإسلامية: كمولاي[1]، وسيدي وسيد سيدي.... والجدير بالملاحظة أن هذه الألفاظ تم تداولها أو بالأحرى الترويج لها على نطاق واسع في الكتابة التاريخية، في حين أهملت ألفاظ أخرى تقوم بالدورنفسه، وهي مرادفة للألفاظ السابقة كبوسرغينيين، والمزواريين، والمشيشيين ... لأن هؤلاء لم يعيشوا في بيئة عربية، وكلها تفيد من حيث اللسان البربري الشريف، والزعيم، وكبير القوم.

ولعل الخاصية المشتركة بين بعض فروع الشرفاء هو تأثير المجال الجغرافي في تسميتهم: كالعلميين والجوطيين، حيث تركت بعض البقاع بصماتها على ألقابهم، وقد امتعض أحد العلميين وشق عليه إدراك غلبة العرف وشيوعه في إطلاق التسميات "**لما غلب العرف وشاع استعمال هذه النسبة بأولاد سيدي أبي بكر بن علي جامع شعب العلميين غلبت النسبة العلمية، فالعلمية طارئة**"[2] فهي في نظره بدعة مستحدثة لا تليق بحفدة رسول الله (ص) وبالعرب كافة "**وأنت إذا تأملت ما كانت عليه العرب في الجاهلية، وفي صدر الإسلام، ظهر لك أنها لم تكن تعتمد في نسبها إلا الآباء والأجداد، ومآثرها ومفاخرها، وحفظ ذلك في صدورهم، ولم يكونوا ينسبون إلى القرى فإن ذلك كان مذموما عندهم**"[3].

إن مصدرالمعلومات المتوفرة لدينا عن الشرفاء هو مجموعة من النصوص النسبية، ألفت في مراحل مختلفة، وقد درج كثير من المهتمين بهذا الموضوع قبل الشروع في سرد أحداث وسير الشرفاء، على تخصيص عنوان شامل يليق بمقام أهل البيت، ولعل القاسم المشترك كذلك بين هذه العناوين هو ميلها الملحوظ إلى إضفاء النزعة التقديسية، والتبجيلية، والكرامة الوراثية، وكل ما هو ثمين على هؤلاء، فمن بين العناوين المدرجة في هذا الشأن، نجد على سبيل المثال:"لب اللباب في تحرير الأنساب"، لجلال الدين بن عبد الرحمان بن أبي بكر السيوطي[4]، وسلسلة لجني صيغ

---

[1]- عمر بن موسى بن محمد الرجراجي، "هداية من تولى غير الرب المولى"، مخطوط الخزانة العامة، الرباط ، تحت رقم ك 383، ص. ص. 1 ، 15.

[2]- ابن السكاك، نصح ملوك الإسلام، م.خ.ع ، الرباط ، ك 383 ، ص. 209.

[3]- أبو عبد الله محمد بن الصادق بن أحمد بن ريسون، "فتح العليم الخبير في تهذيب النسب العلمي بأمر الأمير". م.خ.ع الرباط تحت رقم ك 1244، ضمن مجموع ، ص: 294 – 377. ص 333.

[4]- جلال الدين بن عبد الرحمان بن أبي بكر السيوطي، لب اللباب في تحرير الأنساب، الخزانة الحسنية، الرباط، تحت رقم 6102.

معدن الوفا والصفا وجوهر الشفا في ذكر عمود الشرفاء للعربي بن عبد السلام الفلالي[1]، والأمن والتأنيس للمحتمي بشرف بعض بني إدريس، لمؤلف مجهول[2]، و"الأنوار السنية في نسبة من بسجلماسة من الأشراف المحمدية"، للحسن أحمد ابن محمد بن أحمد[3]...، و"ذرة المفاخر بسيد الأولين والآخرين"، لعبد السلام ابن الطيب القادري[4]، و"الأنجم الزاهرة في الذرية الطاهرة"، لابن رحمون التهامي بن محمد بن رحمون الحسني[5]. فالسلسلة في اصطلاح علماء النسب هم: علي، وموسى الكاظم، وجعفر الصادق، ومحمد الباقر، وعلي زين العابدين، وإدريس بن عبد الله، وعبد السلام بن مشيش، وأبو الحسن الشاذلي ... فهي مسلسلة برجال كل واحد منهم عالم، وصالح، وشريف، أي سلسلة الذهب بجلالتهم، وهذا قليل من كثير مما يراه أصحاب الأنساب دالا على الشرفاء.

---

[1]- الخزانة الحسنية، تحت رقم 11768.
[2]- مجهول، الخزانة الحسنية، تحت رقم 3402.
[3]- الخزانة العامة، الرباط ، تحت رقم D1351.
[4]- الخزانة العامة، الرباط ، تحت رقم د 2007/3.
[5]- الخزانة العامة، الرباط ، تحت رقم ك 1484.